الدكتورة دانية يوسف الزين

الحضارة مفهوم غامض في زمن الثورة التكنولوجية

يشكل البحث في مفهوم الحضارة مسألة شائكة وشاقة في آن معاً. فهي شائكة لأنها تصوّر التاريخ بمشاهد حيّة شاملة، فتحاول أن تبعث الماضي متكاملاً بقدر الإمكان. فالصورة التي تقدمها لنا الكتابة التاريخية يمثل الانسان فيها كامل الأوجه، فنراه صانعاً، زارعاً، شاعراً، كاتباً، فناناً، سياسياً وحاكماً...

وهذه النظرة هي التي جعلت البحث في الحضارة أمراً شاقاً، ولكي نصل، بل يصل الباحث الى الحكم على حضارة مجتمع ما، عليه أن يلمّ بكافة مظاهر هذه الحضارة، من أدب وعلم وفن وسياسة... وهذا يتطلب جهداً في المجال الفكري، وفي مجال التحصيل في الوقت ذاته. وقد سارع التقدم الصناعي الضخم في القدرة على إبتداع الآلات وتطويعها لخدمة الانسان، وهذا ما يظهر طريقة استغلال الانسان للقوى الطبيعية وما نشأ عن ذلك من مشكلات نظرية وعلمية... لذلك يمكننا القول أن الآلة و الصناعة لم يكن لها تأثير بارز الا في الغرب.

لكل شعب على سطح الارض نصيب من الحضارة أي له نصيب من التنظيم الداخلي لحياته، ومن الفهم، فتتفاوت حضارة الشعوب في مدى ما اكتسبه من علم وخبرة وقدرة على تسخير الطبيعة من أجل خدمتها. وتساعد في ذلك ظروف اجتماعية او مادية طبيعية عزلت الشعوب عن الإتصال بغيرها والإستفادة من خبرتها... لذلك يمكن القول بأن الحضارة هي صفة للإنسان، حيث ذهب بعض الكتّاب الى القول: أن ظاهرة الحضارة لا تتمثل الا في المجال البشري.

أول ما يتبادر الى الذهن عند الحديث عن الحضارة ، مقدمة ابن خلدون الذي تناولها في إطار ما يسميه الدولة من حيث قيامها وسقوطها حيث قال:"الحضارة غاية في العمران ونهاية عمره ومؤذنة فساده".

وقد عرّفها "ول ديورانت" بأنها نظام اجتماعي يُعين الإنسان على زيادة إنتاجه الثقافي.

كذلك عرّفها الانتربولوجي الانكليزي"تايلور": الحضارة هي كيان معقّد يضم العديد من الفنون والآداب والعادات والتقاليد وجميع القوانين التي يكتسبها الإنسان في المجتمع.

ومن وجهة نظر الإسلام تمثل الحضارة مجموعة القيم والمفاهيم التي ترتبط بمختلف مناحي الحياة، فترتبط بالحالات الدينية والاجتماعية والعلمية والادارية والاقتصادية و السياسية...

1-عوامل قيام الحضارة

من العلماء من يقول أن الحضارة تقوم على عامل واحد هو طبيعة العنصر البشري، ومنهم من يقول أنها تقوم على عدة عوامل منها:

- الظروف البيئية.
- الأحوال الاقتصادية.
- جوهر الإنسان وإرادته وعزيمته.
- القيم الاجتماعية في المجتمع والتي تلتزم عادة إحداث حضارة قوية و متينة.

وهكذا يمكن القول أن الحضارة تقوم على عاملين أساسيين : الطبيعة و الإنسان، بإعتبار أن الطبيعة خُلقت لخدمة الإنسان ، وبذلك تكون العلاقة بينهما علاقة تكامل وإنسجام . ومن إحدى مظاهر الحضارة الخارجية العمران الذي بات يُظهر التوسع الحضاري الذي ينعكس جمالاً وروعة على المجتمعات .

2- مقارنة الثقافة و الحضارة

إن مجرد وجود مصطلحي الحضارة والثقافة في القاموس البشري والفلسفة البشرية هو دليل على نضج عميق في الفلسفة الإسلامية لتعريف الإنسان، ولو وُجد مصطلح الحضارة وحده دون مصطلح الثقافة لدعّم ذلك تصور الفلسفة المادية كما لو وجد مصطلح الثقافة وحده دون الحضارة لدعّم فلسفة الدين المجرد، أما أن يوجدا معاً فذلك تعبير عن جذورالفلسفة الإسلامية عند البشر عبر التاريخ.

إنّ كلاً من الثقافة والحضارة يمثلان خطين مختلفين في الذات الإنسانيّة، حيث تمثل الثقافة الروح والدين والفن والقيمة والمُثُل، أما الحضارة فتمثل نمط مختلفاً يجمع العلم والطبيعة والمادة، وبصورة أكثر دقة تمثل الثقافة الخُلود والثبات أما الحضارة فتمثل التجدد والتطور، تمثل الثقافة السماء أمّا الحضارة فتمثل الأرض، تمثل الثقافة الوجدان وتمثل الحضارة العالم الخارجي المشهود. كذلك إن مجرد معرفة الخطأ والصواب تنتمي للحضارة، أما القدرة على إنفاذ الصواب وتجنب الخطأ فتنتمي للثقافة،

بالتأمل في تلك الثنائيات التي تبدو وكأنها متناقضة متناثرة في الذات الإنسانية، فإنه لا تستقيم الحياة إلا بالعالمين معاً (عالم الحضارة وعالم الثقافة) ، كما أن الإنسان يستقر بهما ويضطرب .

3- العلاقة بين الحضارة والنّاس

توجد علاقة تربط الحضارة مع النّاس الذين يعيشون على أراضيها، ويصبحون جزءاً أساسيّاً منها، وتلخّص هذه العلاقة وفقاً للآتي:

- الإكتساب: هو دور الحضارة في بناء الصفات المرتبطة بالإنسان الذي يعيش على أراضها، إذ يولدُ كائناً بيولوجيّاً لا يتميّزُ بأيّ صفاتٍ اجتماعيّة، ويُساهم وجوده في

أسرته بتزويده بمجموعة من المكوّنات والخصائص الثقافيّة الخاصة بمجتمعه، من خلال الإعتماد على دور التربية الاجتماعيّة التي تُعلّم الأعراف، والتقاليد، والدين، واللغة التي تحوّل الإنسان إلى كائن اجتماعيّ يتمتع بصفات المجتمع الذي يعيش فيه.

- الميراث الاجتماعيّ: هو دور الحضارة في توصيل الأفكار والخبرات وطُرق الإتصال بين الأشخاص؛ عن طريق إستخدام قنوات الإتصال الخاصة بها، مثل الضبط الاجتماعيّ والتربية الاجتماعيّة، ولا يعني أنّ الحضارة جزء من الميراث الاجتماعيّ بأنّها غير قادرة على التكيّف مع التطوّرات الحديثة المتلاحقة، أو أنّها منفصلة عن الحاضر والواقع في المجتمع، بل تحرص الحضارة على تطوير أساليبها وأدواتها في التربية والتعليم، وتنظيم العلاقات بين النّاس؛ بهدف المحافظة على إستمرارها وتجنّب تراجعها.

الحضارات بكلياتها تتواصل وتتفاعل وتتبادل، وهذه الخاصة الأساسية من خواصها مستمدة من كيانها الإنساني والاجتماعي. فمن طبيعة الإنسان أنه يتعلم ويعلّم، يقلِّد ويقلَّد، يأخذ ويعطي، يؤثر ويتأثر، فإذا ما اتصلت المجتمعات وتماشت الحضارات، أدت الطبيعة الإنسانية الاجتماعية ذاتها إلى مثل هذا التبادل، وإلى تفاعل الحضارات فيما بينها، وإلى تمازجها وتلاقحها...

4- الحضارة والمجتمع(المجتمع والمدنية):

الحضارة هي وجه من أوجه المجتمع وصفة من صفاته . وقد فرّق ألفريد ويبر Alfred woeber بين المجتمع والمدنية معتبراً أن المجتمع هو مجموع الظواهر الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، بينما الحضارة هي الفن والدين والفلسفة، أما العلاقة التي يمكن تصوّرها بينهما فهي علاقة تداخل بين المجالين.

أبسط تعريف للتكنولوجيا هو أنها توظيف العلم في خدمة الصناعة، بينما أبسط تعريف للحضارة هو أنها نسق ثقافي وبناء فكري يرتبطان بعنصري الزمان والمكان. لذلك ليس كل تقدم تكنولوجي يعتبر حضارياً، وليس كل نسق ثقافي مميّز يعتبر ضرورياً لتكنولوجيا معينة.

5- الفرق بين مفاهيم الحضارة والثقافة والمدنية:

ما دام هناك من يخلط ما بين المفاهيم الثلاثة حضارة، ثقافة، مدنية، قد يكون من الضروري الوقوف لتحديد مفهومي الثقافة والمدنية بعد أن حددنا سابقا مفهوم الحضارة.

أ-مفهوم الثقافة: ظهرت كلمة ثقافة "culture ".. "في الفرنسية بمعناها الدقيق في القرن الثالث عشر ، وتلتها في القرن الرابع عشر كلمات مثقف، زارع Cultivateur ومزارع agriculteur لكنها لم تكتسب معناها المجازي كمعرفة، كتربية، وعلم، إلا في القرن الخامس عشر إنطلاقا من مشتقاتها أيضا: cultiver، cultive، Inculte، وبشكل متواز يحتفظ المعنيان (زرع، ثقف) بكامل قوتهما، ولن يتمايزا إلا بصفتي cultural (القرن 19) وculturel (القرن 20).

وحاليا هناك شبه إتفاق على أن الثقافة هي نتاج تراكمي لعدة قرون، وأنها تُعدّ عملاً إنسانياً جماعياً يتضمن عمليات التدخل والتفاعل والتعديل (للطبيعة وللسلوك...). ومن أبرز التعريفات التي أوردها علماء الأنثروبولوجيا للثقافة نذكر:

- تعريف Kilpatric الذي يقول بأن الثقافة "هي ما صنعته يد الإنسان وعقله من أشياء ومظاهر في البيئة الاجتماعية، أي كل ما إخترعه الإنسان أو ما إكتشفه وكان له دور في العملية الاجتماعية...
- تعريف Kluckhon جاء فيه أن الثقافة هي "وسائل الحياة المختلفة التي توصل إليها الإنسان عبر التاريخ، الظاهر منها والضمني، العقلي واللاعقلي، التي توجد في وقت معين والتي تكون وسائل إرشاد توجه سلوك الأفراد في المجتمع...

- تعريف نيلز Nilles يقول بأن الثقافة "هي جميع طرائق الحياة التي طوّرها الإنسان في المجتمع"...
- تعريف رجال التاريخ للثقافة: فقد فسروها قائلين بأنها هي "راسب التاريخ"، إذ ينظرون اليها على أنها مجموعة عمليات تاريخية الأصل، تتراكم خلال السياق التاريخي/الحضاري، أو تترسب في التاريخ. فهي تنمو وتنتعش وتترقى كما أنها قد تهاجر من منطقة إلى أخرى.

نستنتج من التعاريف السابقة للثقافة بأنها، بمفهومها العام، تعني التكيّف، وما تكشفه الثقافة من تدخل الإنسان في تعديل الطبيعة، أو تحويلها بإضافة عناصر بشرية على الوجود الطبيعي. وعليه فكل إضافة بشرية على الوجود الفيزيقي أو العالم الطبيعي هي ثقافة. الثقافة بمعنى من المعاني هي الجانب الفكري والروحي لمجتمع ما ولحضارة ما. لذا فهي مرتبطة بلغة وبشعب معينين مما يسمح لنا بالقول إن هناك ثقافة فرنسية ضمن الحضارة الأوروبية، وهناك ثقافة عربية ضمن الحضارة الإسلامية، فتكون الثقافة بهذا المنظور/المثال هي الجزء والحضارة هي الكل.

ب – مفهوم المدنية: عادة يقصد بالمدنية مرحلة زمنية/تاريخية زاهرة وزاهية من مراحل تطور الحضارة، وتتكون أساساً من تراكمات كمية زائدة في كم ومحتوى الحضارة، أي فائض في الماديات وتعقّد في المعنويات (العقيدة والفكر والحرية..)). وهذا ما يقوله Odoum H.W: "إن كل مدنية حضارة وليست كل حضارة مدنية"...

وهكذا يمكن القول بالمدنية الفرعونية، المدنية البابلية، المدنية الغربية المعاصرة، بينما لا يحق لنا، حسب هذا التصور، القول بالمدنية الإفريقية المعاصرة.

6- أنواع الحضارات:

يمكن إيجاد تصنيف للحضارات، ولو بشكل مبسط، بناء على عدة أسس، أوضحها الأساس الاقتصادي لتميزه ووضوحه مقارنة مع غيره، وكذا لتميز ووضوح الأقسام الرئيسية للنشاط الاقتصادي في صورة مراحل تاريخية مختلفة .لذلك يمكننا تقسيم الحضارات الرئيسية حسب هذا الاساس إلى ثلاثة أنواع وهي :

أ – مجموعة الحضارات البدائية: وتتميز هذه باقتصاديات الجمع والصيد (إنتاج زراعي ورعوي بسيط: الزراعة المتنقلة) وبتنظيم سياسي مبني على أساس القرابة ويبقى فيه كبار السن هم منفذو القانون ضمن نظام قبلي بالأساس.

ب – مجموعة الحضارات العليا: وتتميز بمعرفتها للأبجدية وتسجيل تاريخها بها، وبإقتصاديات الإنتاج البسيط: الزراعة الكثيفة، والمحراث الخشبي الذي يجره الحيوان بعد استئناسه، وصناعة الفخار والحديد، وبنظام سوسيوسياسي من بين مميزاته: تمييز اجتماعي: الطبقة الحاكمة ضد طبقات الشعب وتكوين الدولة وحياة القصور ونشوء المدن والوظائف الحكومية.

7– التقدم التكنولوجي

لقد أسهم التقدُّم العلمي والتكنولوجي بدوره الفاعل في التقارب والتعارف بين الأمم، إذ حملت الأعوام العشرون الماضية ثورةً تقنيَّةً كبيرة كان لها دورها الكبير في تقارب الشعوب وتعارفها، وقامت ثورةٌ الأقمار الاصطناعيَّة التي أتاحت للعالم أن يتعرَّف على ثقافاته وتنوُّعاته البشريَّة والعلميَّة الكثيرة، فضلًا عن ثورةٍ الإنترنت التي جعلت العالم قريةً بل أسرةً صغيرة،

ولقد باتت هذه التكنولوجيا الحديثة نوعًا مهمًّا من أنواع المصلحة المشتركة، التي يأتي في مقدِّمتها "المعلوماتيَّة.

8–تفاعل الحضارات

إن التفاعل والاحتكاك بين الحضارات يعد مكسباً كبيراً يجب أن يُوظف ويُستغل في تحقيق التقدم والتطور، ويمكن القول إنه لا يمكن عزل أي حضارة عن أخرى إذ إنه لا توجد حضارة نشأت من تلقاء نفسها بمعزل عن الحضارات الأخرى، أو أنها لم تتفاعل مع غيرها من الحضارات، وذلك لأن الحضارة عبارة عن كيان ثقافي واسع وممتد وليس له حدود أو حتى بداية ونهاية محددة، كما أن الحضارات والثقافات غير ثابتة وتتغير مع الزمن وتتفاعل مع بعضها البعض الأمر الذي يؤدي إلى إثراء الحضارة الإنسانية بشكل عام، ففي تفاعل الحضارات تأخذ كل حضارة ما يناسبها وما يتفق مع طبيعتها، وتعطي الحضارات الأخرى ما

تجود به بما يتلاءم مع نشاطها، والجدير بالذكر أنه لا يمكن أن تكمل أي حضارة مسيرتها دون حدوث تبادل وتفاعل مع الحضارات الأخرى والذي تحتمه طبيعة الحياة. والثقافات التي تنتج عن تفاعل الحضارات هي نتاج إنساني تتغير وتتكيف تبعاً للحضارات المتفاعلة، فيُعاد تشكيل هذه الثقافات مُنتجة ثقافة جديدة في طبيعتها وفلسفتها إلّا أنّها تناسب ثقافة الحضارات المتفاعلة. وتعتمد شدة التأثير والتأثر الحاصل في هذا التفاعل والتبادل على قوة ومدى انتشار وسائل الاتصالات، وعلى الفارق في درجة التقدّم ومقدار القوّة بين الحضارات المتفاعلة، وكذلك على استعداد أفراد تلك الحضارات النفسي والعقلي وجاهزيّتهم لهذا التفاعل.

إن التبادل والتفاعل بين الحضارات لا يلغي خصوصية أي حضارة، وإنما يزيد من وعي الأفراد بقيم الحياة ومقوماتها، كما أن من شأنه تقريب الصلات بين الأفراد وإزالة الكثير من المخاوف، وتخضع جميع الحضارات إلى مبدأ التفاعل. ويعدّ التفاعل الصحيّ بينها هو الذي يحدث في جو سليم ينعم بالحرية والرضى والتساوي، وتسفر عنه نتائج مثمرة، أما فساد التفاعل الحضاري فيكون عندما يحدث في أجواء الحرب، أو نتيجة الكبت والقهر، أو التفاعل الذي يحدث لمصلحة جهة معينة وإهمال مصالح الجهات الأخرى.

9-مقارنة بين الحضارات

نظرة الى العالم حولنا توضح أن الحضارات القديمة ليست بالضرورة هي الأعلى ازدهاراً أو الأكثر تقدماً بل بعضها يعاني من الترهل والشيخوخة و الهرم .

مقدمة ابن خلدون في نظرية العمران ونشوء المدن تشير الى وجود إختلاف بين حضارة النهر و حضارة الصحراء(مجتمعات البادية و مجتمعات الحضر) حتى داخل الدولة الواحدة.

والمتأمل للخريطة الجغرافية، يلاحظ نشوء العواصم على ضفاف الأنهار أو شواطئ البحار ، ولكن ذلك اختلف بعد اختراع الطيران وإمكانية الوصول الى أي مكان.

وأخيراً جاء دور البحث العلمي في تجسيد الفجوة بين العمق الحضاري والتقدم التكنولوجي وأجراء مصالحة بينهما.